سلام الراسي شيوعياً في بدايات عمره
وشيخ الأدب الشعبي على امتداد حياته

سلام الراسي هو أديب لبناني اختار الأدب الشعبي جنساً لعمله الأدبي. وقد أجمع المثقفون اللبنانيون على منحه لقب "شيخ الأدب الشعبي". وهو لقب استحقه بجدارة. إذ هو اقتحم ميداناً جديداً لم يسبقه إليه أحد من الكتاب اللبنانيين الذين يهتمون بالبحث في التراث الشعبي اللبناني، في التقاليد والعادات وفي الأمثال وفي الطرائف الشعبية. وكرّس لهذا الميدان الجديد من البحث التاريخي عقوداً عديدة من عمره الذي غادره بعد أن تجاوز التسعين من الأعوام. وفرض عليه هذا الإهتمام الأدبي والتاريخي أن يحدث تغييراً جذرياً في مسار حياته التي كان قد أعطاها في شبابه نمطاً من الإهتمام غلبت عليه السياسة. وهو نمط من السياسة تطعم بانتماء أيديولوجي من نوع مغاير لما كان سائداً في محيطه الجغرافي، الواقع في أقصى الجنوب اللبناني على بعد كيلومترات قليلة من الحدود مع شمال فلسطين. إذ انتمى وهو في ريعان شبابه في أواسط ثلاثينات القرن الماضي إلى أول خلية شيوعية في بلدته الجنوبية "إبل السقي".

دخل سلام الراسي في بحثه الجديد هذا، الأدب الشعبي، من أبوابه الواسعة. لم يقرأ في الكتب وحسب. وهو قد بحث عن هذه الكتب طويلاً، واقتناها وقرأ فيها الكثير. واستقى منها كل ما كان بحاجة إليه في بحثه الممتع. لكنه رأى أن الميدان الحقيقي لبحثه إنما يكمن فيما تمتلكه ذاكرة الناس من أبناء القرى، مشايخها وشيوخها، وفلاحوها من كبار السن خصوصاً، رجالاً ونساء، وكذلك من الأدباء، أدباء الفصحى وأدباء الشعر الشعبي الذين يحملون في لبنان صفة الزجالين، أو شعراء الزجل، ويكتبون الشعر ويرتجلونه باللغة المحكية. وحين اكتنزت جعبة الراسي بالكثير من الأقوال والأمثال والحكايات، انتقل من البحث والتفتيش عن المخزون الشعبي في ميدانه الرحب إلى تدوين هذا المخزون في كتب. وبدأت تصدر هذه الكتب تباعاً، كتاباً إثر كتاب، حتى بلغت أحد عشر كتاباً. وتشير عناوين هذه الكتب، حتى قبل أن يدخل المرء إلى متنها، إلى المعنى الجميل لهذا الجهد الذي بذله سلام الراسي في تعريف القراء، اللبنانيين منهم وغير اللبنانيين، بالثقافة العفوية الفائقة الغنى عند الشعب اللبناني. ولفت انتباههم، في الوقت عينه، إلى أن اللبنانيين المتعددي الثقافة والإنتماءات الدينية والثقافية هم موحدون في تراثهم الشعبي الأصيل.

لنأخذ بعضاً من هذه النماذج من عناوين كتبه: **لئلا تضيع، حكي قرايا وحكي سرايا، أدب وعجب، الناس بالناس، أحسن أيامك سماع كلامك، في الزوايا خبايا، شيح بريح، حيص بيص، الحبل على الجرار، جود في الموجود.** هذه العناوين التي حملتها كتب سلام الراسي تدل بوضوح على أمرين اثنين: الجهد الذي بذله هذا الأديب الطريف والظريف، والدلالة التي تشير إليها هذه الكتب في موضوع التراث الشعبي المعبّر عن جوانب أساسية من شخصية الشعب اللبناني. وفي يقيني فإن سلام الراسي كان يريد في بحثه هذا في الموروث الشعبي اللبناني وفي ما توصل إليه في كتبه من دلالات، كان يريد أن يؤكد للقاصي والداني أن عناصر الوحدة في الشخصية اللبنانية في تنوع وتعدد مكوناتها هي أعمق وأقوى من كل المحاولات التي جرت وما تزال تجري، من داخل لبنان ومن خارج حدوده، بهدف تشويهها وتعطيلها وإفقادها سماتها التي تشير إلى غناها. فالتعدد الديني والثقافي كانا دائماً مصدر غنى لهذه الشخصية.

إن من يقرأ كتب سلام الراسي ومن يقرأ أحاديثه الشيقة يستطيع أن يستنتج ما ذهبت إليه في قراءتي للمعنى العميق في أبحاثه التي ضمتها كتبه وأحاديثه والأمثلة الرائعة التي انتقاها من تراث اللبنانيين البسطاء المتنوعة انتماءاتهم الدينية والثقافية والمتعددة لهجاتهم المحكية بين منطقة ومنطقة، بل حتى بين قرية وقرية أخرى مجاورة لها في المنطقة الواحدة.

غير أن سلام الراسي لا يكتفي بنقل الأمثال والأقوال الشعبية المتداولة. بل هو يدخل في سرد بعض الأحداث المتفرقة، من قديم الأزمنة ومن حديثها، ليستخرج منها مثلاً هنا وقولاً هناك وقصة ظريفة هنالك. كما أنه يتوقف عند بعض الشخصيات من تاريخ لبنان، السياسية منها والإجتماعية والأدبية والدينية، ليروي بعض الأخبار التي تمتزج فيها الطرافة بالأخبار ذات الصلة بهذه الشخصيات، وليستخلص منها في نهاية المطاف ما يخدم هدفه الذي تحوّل عند سلام الراسي في الكتابة إلى جنس أدبي قائم بذاته. ولا ينسى، وهو يروي تلك الأحداث ويستتذكر تلك الشخصيات، أن يتحدث في السياسة السياسية . أي أنه يغتنم الفرصة ليعبّر عن رأي له في المسائل التي تكون محور النقاش والجدل، سواء ما يتعلق منها بلبنان أم ما يتعلق منها بالقضايا العربية وحتى العالمية. كما أنه يحب أن يستشهد بالشعراء ممن كانت تربطه بهم علاقة صداقة أو معرفة، وممن تكون لشعرهم علاقة بما هو منهمك في الحديث عنه واستخلاص الأمثلة والأقوال منه.

ويستطيع القارئ لكتبه أن يرى الرابط في الكثير من الأمثال التي يسوقها بين ما هو لبناني وبين ما هو مشترك بين البلدان العربية، برغم اللهجة اللبنانية التي تقال بها تلك الأمثال. وسأورد هنا

بعض الأمثال والأقوال السائدة، القديم منها والمتجدد، والحديث منها الذي جاءت به الأحداث. أسوقها من دون ترتيب ومن دون الإشارة إلى الكتاب الذي وردت فيه من كتب سلام الراسي:

"**عنزة ولو طارت، اقعد أعوج واحكي جالس، ما حك جلدك غير ظفرك، المرأة خزانة والرجال بلا أمانة، إن شفت الفقير معجوق قول الغني مسخرو، ما في جود إلا من الموجود، من قلة الرجال سموا الديك "بو قاسم"، إن فرغت جيوبو كثرت عيوبو، إن حزّت المحزوزية كل عنزة بتلحق قطيعها، ألف زلة قدم ولا زلة لسان، بدك تأكل عنب أمّا بدك تقتل الناطور، مكسر عصا، صار بيناتنا خبز وملح، الكرسي بتنسي، من كل وادي عصا، لعب الفار بعبو، اختلط الحابل بالنابل، وسع بوابك بيكثروا صحابك، تحت الجبة شيطان متخبي، ناكل لنعيش ولا نعيش لنأكل، بالشكر تدوم النعم، الطعام نصفه يقيت ونصفه يميت، المرأة بالبيت رحمه ولو كانت فحمة، سلّي رفيقك بيقصر طريقك، إذا ارتفع سعر الشعير بيرخص سعر الحمير، ألف قلبة و لا غلبة، كل شي ع بابو بيشبه صحابو، كل شي عادة حتى الشحادة، مجنون يحكي وعاقل يفهم، مثل الأطرش بالزفة، فالج لا تعالج، من جرّب المجرب كان عقلو مخرّب،عند اختلاف الدول احفظ راسك، قاضي الولاد شنق حالو، واحد حامل دقنو والثاني تعبان فيها، مش رمانة قلوب مليانة، الولد ولد ولو حكم بلد، صيف وشتاء على سطح واحد**".

لم يختلف الذين كتبوا عن سلام الراسي واحتفوا به من أدباء لبنان، ومن الدولة التي منحه رئيسها وسام الأرز الوطني، في تقييم الدور الريادي الذي تصدى له بكل ما يملك من ثقافة وبكل ما يملك من قدرة على البحث والتنقيب والإستخلاص. فمنهم من اعتبره أديباً بكل المعاني. ومنهم من اعتبره مؤرخاً. ومنهم من اعتبره باحثاً في التراث. ومنهم من اعتبره باحثاً إجتماعياً. ومنهم من اعتبره جامعاً لكل هذه الصفات والمهمات والإهتمامات.

إلا أن من المفيد أن نتعرف إلى رأي سلام الراسي في أدبه، وفي الجذور التي استند إليها لكي يدخل في عالم الأدب الشعبي ويصبح شيخ هذا الأدب. يقول في مقدمة "حكي قرايا وحكي سرايا" في تعريف الأدب الشعبي: " **يستعمل عامة الناس في أحاديثهم كلاماً غير الذي يستعمله الخاصة من رجال العلم والفكر والسياسة. لذلك قيل: حكي قرايا وحكي سرايا. ... وكما يوجد عند الخاصة أدباء وعلماء ورجال فكر، كذلك يوجد عند العامة محدثون ورواة وأصحاب كلمة تعبق أقوالهم بجمال الفكر والحكمة والأدب**".

غير أنه يعيد اهتمامه بالأدب الشعبي إلى تاريخ طفولته وشبابه الأول. فيقول في هذا الصدد جواباً عن سؤال: "**لكي أجيب بموضوعية عن هذا السؤال حريّ بي أن أرجع بذاكرتي إلى البدايات.**

أنا في الأساس وعيت مبكراً على وجود الأدب الشعبي من خلال ولادتي في قرية إبل السقي، حيث كان شيوخ قريتي هذه يجتمعون مع والدي عند المصطبة ويروون حكايات مملوءة بالقيم والشهامة والرجولة، وفيها الكثير من الحكمة التي تتوجه إلى وصف المرأة. وكان حكواتي قريتنا آنذاك عمي أيوب المكنى بـ"أبو علي" رغم أنه لم يتزوج في زمانه. كنت أتلطى وراء عمي وأستمع إلى الحكايات التي كان يرويها لرفاقه وأحفظها وأذهب إلى أولاد القرية وأرويها لهم. فسموني في حينها أيضاً "أبو علي". وما زلت حتى اليوم أعتز بهذا اللقب وأفضله على اسم سلام لأنه يحمل مضموناً شعبياً وقيمة مميزة. إذا، لقد ورثت وظيفة عمي أيوب في سرد الحكايات. ولم أكتف بذلك بل سعيت إلى تعزيز الأدب الشعبي وإعطائه قيمة ثقافية معترفاً بدورها على كافة الأصعدة الإنسانية والتراثية والوطنية والبلاغية المتعددة".

ويؤكد في سياق حديثه عن أهمية الأدب الشعبي أن لهذا الأدب لغته الخاصة به، هي اللغة المحكية. يقول: " **أنا أؤمن بأن للهجة المحكية قيمتها واحترامها. ولطالما اجتهدت في كتابة الكلمة العامية والبحث عنها أيضاً، الكلمة التي لا يمكن أن نجد لها مرادفاً لها في اللغة الفصحى. خصوصاً إذا كنت أتحدث مثلاً عن فلاح لا يعرف الفصحى. فهو يقول كلمة عامية في محلها. لذلك أدخلت العديد من الكلمات بعد أن فصحنتها على ألسنة الناس البسطاء. ولاقت نجاحاً وتداولاً بين الألسنة نظراً لفرادتها وبلاغتها** ".

لكن سلام الراسي يعتبر أن الأدب الشعبي في لبنان هو شبيه في كثير من أسسه ومن جذوره بالأدب الشعبي في سوريا وفلسطين والأردن. ويرى أن لبنان لا ينفرد بالإهتمام بالأدب الشعبي. ويشير إلى اهتمام العراق ومصر وفلسطين بهذا الأدب. فيقول: "**العراق سبق كل الدول العربية في البحث عن تراثه الشعبي. وأصدروا هناك مجلة عنوانها "الأدب الشعبي". ومصر أيضاً أصدرت مجلة حملت العنوان ذاته. وحرص المصريون على جمع تراثهم الشعبي. أتى من بعدهم الفلسطينيون المشتتون الموزعون في بقاع الأرض، الذين خافوا من خسارة ثقافتهم وحرصوا على أن تكون جامعاً بينهم. فسارعوا إلى جمع أمثلتهم وحكاياتهم في عمل جدير بالإهتمام**".

تعرفت إلى سلام الراسي في سبعينات القرن الماضي. وتابعت باهتمام نشاطه وحركته الثقافية. والتقيت به كثيراً. وكان لا يزال يعتبر نفسه أحد قدماء الشيوعيين، من دون أن يلتزم لا سياسياً ولا فكرياً ولا تنظيمياً بالحزب. لكنه كان يحن إلى العلاقة مع أصدقاء عمره من قادة الحزب الشيوعي، ويرى في ورثتهم من الجيل الجديد، وكنت واحداً منهم، ما يكمل السيرة التي كان قد بدأها في أول العمر مع هذا الحزب.

ولد سلام الراسي في عام ١٩١١ في بلدة "إبل السقي". وهي واحدة من بلدات الجنوب الأقصى المحاذي للحدود مع شمال فلسطين سابقاً ، وشمال إسرائيل حالياً. وهي بلدة أكثر سكانها من المسيحيين. والقسم الباقي هم من الدروز. وتضم هذه المنطقة في الجنوب اللبناني خليطاً كثيفاً من الديانات الإسلامية والمسيحية بمذاهبها المختلفة. ويحدها من الشرق المنطقة التي تقع في سفح جبل الشيخ، ويحدها من الجنوب الجليل الأعلى الفلسطيني. ولكثرة ما كان يربط بين سكان هذه المنطقة من علاقة بعرب فلسطين فإن بعض لهجات اللبنانيين في هذه القرى والبلدات يكاد يكون أقرب إلى اللهجة الفلسطينية الشعبية. والد سلام هو المعلم يواكيم الراسي. وهو كان رجل علم ودين. تعلم في مدرسة المرسلين الأميركيين. ثم أنشأ مدرسة الفنون الأميركية في صيدا. وظل مديراً لتلك المدرسة منذ عام ١٨٨٠ حتى عام ١٨٩٦. ثم عاد إلى بلدته إبل السقي وظل فيها حتى وفاته في عام ١٩٢٧. وكان سلام في السادسة من عمره عندما توفي والده. فربته والدته التي كانت ترغب في أن يصبح ابنها رجل دين. تلقى سلام علومه الإبتدائية في مدرسة البلدة. وأنهى المرحلة الثانوية من دراسته في مدرسة مرجعيون مركز القضاء. في عام ١٩٢٧ انتقل سلام مع والدته إلى بيروت واستقر فيها حتى وفاته. انتسب في أوائل ثلاثينات القرن الماضي إلى الحزب الشيوعي. ويروي الأستاذ الجامعي شفيق البقاعي ابن بلدة إبل السقي وصديق سلام الراسي قصة انتساب سلام للحزب الشيوعي. يقول البقاعي أن شخصا اسمه بطرس زكا من بلدة إبل السقي كان معروفاً بثقافته وبمتابعته للأحداث التاريخية. وكانت من بين تلك الأخبار التي عممها أخبار تتصل بالثورة الروسية. وتركت تلك الأخبار مفعولها في البلدة إلى الحد الذي جعل ابنته فيما بعد تصبح مناضلة شيوعية بارزة في المنطقة. وكان سلام الراسي وصديقه عساف الصباغ وعدد آخر من أصدقائهما ممن أصبحوا قادة في الحزب الشيوعي على صعيد منطقة الجنوب قد تأثروا بتلك الأخبار وبتلك الأفكار التي تنتسب إليها. وذات يوم جاء إلى إبل السقي مثقف ينتمي إلى الحزب السوري القومي الإجتماعي حاملاً معه أفكار هذا الحزب وأفكار مؤسسه أنطون سعادة. وكان في نيته العمل على فتح فرع للحزب في البلدة. وكان معروفاً منذ ذلك الحين أن العلاقة بين الحزب الشيوعي والحزب القومي متوترة بحكم الإختلاف والتناقض بينهما في الأيديولوجيا والسياسة. وما أن شاع الخبر حتى ذهب سلام الراسي ومعه عساف الصباغ إلى بيروت ليفتشا عن الحزب الذي يحمل الأفكار التي كانا قد سمعا بها من بطرس زكا. فتلقفهما أحد أبناء مدينة مرجعيون وقادهما لمقابلة رئيس الحزب الإشتراكي الذي كان قيد التأسيس. وكاد سلام وصديقه عساف أن ينتسبا إلى ذلك الحزب لو لم يصادفا ذات يوم فرج الله الحلو في مكتب الحزب. وكان الحلو قد أصبح قائداً

شيوعياً معروفاً. اصطحبهما فرج الله معه إلى مكان خارج مكتب الحزب الإشتراكي وأقنعهما بالإنتساب إلى الحزب الشيوعي. وهكذا صارت للحزب الشيوعي في إبل السقي خلية أولى. وكان سلام الراسي المسؤول الأول فيها. وزارهم فرج الله الحلو في إبل السقي أكثر من مرة ليجتمع بالخلية الشيوعية الأولى فيها. كما زارها للغاية ذاتها في عام ١٩٣٦ وفد من الحزب الشيوعي الفرنسي كان قد جاء إلى لبنان في ذلك التاريخ بدعوة من الحزب الشيوعي اللبناني. وهذا التاريخ (١٩٣٦) هو تاريخ مشهود في فرنسا. ففي ذلك العام بالذات تشكلت الجبهة الشعبية من الحزبين الشيوعي والإشتراكي، وتشكلت حكومة شارك فيها الحزبان. وصادف في ذلك العام بالذات أن انفجرت الثورة الفلسطينية. وانتشرت أخبارها وأصداؤها في منطقة الجنوب اللبناني. وذهب إلى فلسطين من لبنان مثقفون ومجاهدون للمشاركة في تلك الثورة كل منهم على طريقته. لكن منظمة الحزب الشيوعي في إبل السقى تطوعت لتشكيل فريق من المناضلين لمكافحة الهجرة اليهودية إلى فلسطين، واعتقال واغتيال من يمكن مصادفتهم من أولئك المهاجرين خلال حملة المراقبة والتفتيش. واشتهرت تلك المجموعة في لبنان. وكان يرأسها عساف الصباغ، رفيق وصديق سلام الراسي. فأرسل رياض الصلح إلى عساف الصباغ طالباً إليه المساعدة في تشكيل مجموعات لبنانية من مختلف المناطق للقيام بالمهمة ذاتها، بوسائل مختلفة. وحين اتهمت سلطات الإنتداب الفرنسي عساف الصباغ بقتل أحد اليهود تمّ اعتقاله وإحالته إلى محكمة كان يرأسها سامي الصلح ابن عم رياض الصلح. فتدخل رياض لإقناع ابن عمه بالعمل على إطلاق سراح عساف الصباغ وتبرئته من تهمة القتل. وهكذا كان. لكن عساف الصباغ تابع نضاله مع مجموعته ضد الهجرة اليهودية وضد حكومة فيشي الفرنسية التي كانت تابعة لهتلر. فلاحقته تلك القوات واغتالته في عام ١٩٤١. وبعد انتصار الحلفاء على جيش فيشي في لبنان في العام ذاته ذهب رياض الصلح قبل أن يصبح رئيساً لحكومة الاستقلال إلى إبل السقي ليضع إكليلاً من الزهر على قبر عساف الصباغ.

تابع سلام الراسي نضاله على امتداد تلك الفترة وصولاً إلى مطالع الخمسينات. فشارك في المظاهرات ودخل المعتقلات. لكنه سرعان ما وجد نفسه في تناقض مع الإتجاه الستاليني الذي كان سائداً في الحزب. فذهب يبحث عن فرج الله الحلو الذي كان متخفياً في ظل الفترة السرية من تاريخ الحزب. وحين قاده إلى المنزل السري لفرج الله أحد مناضلي الحزب قدم سلام إلى فرج الله استقالته من الحزب. لكنه لم يتخذ موقفاً سلبياً من الحزب ومن سياساته. وبدأ مرحلة جديدة من حياته. وكانت تلك المرحلة هي مرحلة البحث في تاريخ الأدب الشعبي، التي جعلته يتبوّأ عمادة هذا الأدب،

ويصبح شيخ الأدب الشعبي في لبنان. وترك للثقافة اللبنانية أدباً رفيعاً يحمل اسمه وأسماء آخرين من أمثاله. لكنه يظل بين هؤلاء صاحب الدور الريادي.

كان آخر لقاء لي مع سلام الراسي في الاحتفال الكبير الذي أقيم في قصر الأونيسكو تكريماً له، وعرض في الاحتفال فيلم وثائقي عن سيرة ومسيرة هذا الأديب الكبير.